# في صبيان الماراثون زمن مستحضر

## للقاص صبري الحيدري

في مجموعته القصصية الموسومة صبيان الماراثون الصادرة عن دار الرافدين في بغداد في طبعتها الأولى والتي تضمنت ثلاثة وثلاثين نصا قصصيا، استطاع وبذكاء القاص صبري الحيدري أن يأخذنا لعوالم أبطاله، تلك العوالم المستدعاة من الذاكرة في معظمها، فالأبطال وحكاياتهم تمثل استرجاعا تاريخيا يجسد خزين الذكريات التي عاشها القاص.

ويجدر القول أن من العناصر السردية التي تبرز صوت السارد: محتوى النص السردي، والتعبيرات الشخصية التي تشير إلى ثقافة السارد ومعتقداته وقناعاته وتوجهاته السياسية والفكرية وموقفه من الناس والأشياء، وهذا ما عبر عنه الحيدري وفق إشكالية المقاربة بين الماضي والحاضر وكذلك الإيماءات أو التعبيرات التي تشير إلى وعي السارد بذكاء القارئ الذي يشكل الجانب المهم في عملية التلقي برمتها، ومن خلال قراءة متأنية لما ورد من موضوعات قصصية في المجموعة المذكورة وجدنا القاص على دراية تامة بنوعي السرد

فسرد يكون فيه النص متجانسا عندما يروى السرد بضمير المتكلم الشاهد، كما في قصة «رماد الليل، وسيرة بطعم الحنظل، ما رواه لي جدي «على سبيل المثال فهذه القصص الثلاثة تحدثت بضمير المتكلم وأشار للأحداث وكأنه هو الذي عاشها.، وثمة قصص تنتمي إلى السرد غير المتجانس الذي يتحدث فيه السارد عن شخص ثالث وعلى رأس هذه القصص «صبيان الماراثون» التي اتخذت منها عنونة المجموعة وشكلت في مضامينها قراءة في دفتر جيل من المشردين والشاذين ضمن تركيبة المجتمع العراقي من الصبيان المتحللين نتيجة لانحدار الدور التربوي للأسرة كما ورد في ثنايا القصة حين تحدث الصبي يتيم الأم عن والده السكّير، ومن ثم الشذوذ الجنسي عند الصبي الذي ارتهن تلك الصبية التي لم تبلغ الحلم بعد ومحاولة اغتصابها تحقيقا لرغبة وانحراف في سلوكه، وهذا الأمر يدخل ضمن إطار الاجتماعي والتربوي، أما السياسي وكما يبدو هو ضمن السقف الزمني المتعلق باحتلال العراق من القوات الغازية الأمريكية كما جاء في المتن من دلالات ورود جملة «تحركت ثلاثة همرات أمريكية» ص46 .

الطفلة هنا تمثل البراءة التي قتلت في بلادنا، والولد الشقي يمثل النكوص الأخلاقي في مجتمع كان مدرسة في الغيرة والشجاعة والخلق، ويحيلنا القاص إلى «المخاطر التي تصاحب الاحتلال والمتغيرات التي يحدثها في البنية الاجتماعية» .

تعيدنا قصة صبيان الماراثون الى زمن رواية ستينيات القرن الماضي وبالتحديد إلى: (سابع أيام الخلق) للروائي عبد الخالق ألركابي و(كراسة كانون)لمحمد خضير و(رغوة السحاب)لمحمود عبد الوهاب وقائمة طويلة من هذا النوع من السرد الذي يبشر بنهاية العدالة وشيوع الفوضى وتنامي العدوانية .

وحقيقة أن هذه القصة تثير إشكاليات سردية حول مستويات تعالق ما هو واقعي وما هو تخيلي..حيث يخامرنا الإحساس وقت تتبع الحدث القائم على بعض الاتهامات أن الصبي قد مارس الاستمناء دون أن يذكر القاص حصول الفعل إلا بالإشارة له وهو دعوة واضحة للمتلقي بأن يكون الحلقة التي تكمّل دورة حياة النص .

وتعزيزا لهذا الزعم ما انتهت إليه الأحداث من احتمالات تأويلية مفتوحة على خيارات مختلفة فقد انتهت القصة «يرتد ويعاود، يعاود ويرتد» ص46. وهذه الجملة وحدها تقع ضمن إطار النهاية الظنية التي تؤول وفقا للتلقي.

وفي قصة مثلت استرجاعا تاريخيا واضحا «حكاية للصحو قبل النوم» ص58، تضمنت سردا تاريخيا بأسلوب لغوي منضبط يعبّر عن معجم لفظي تراثي حاز عليه القاص فوظفه بعناية في متن الحكاية المستدعاة من الماضي «ثلاث حوبات، مشط، مكحلة، جزدان...)

وجميع هذه الألفاظ ذات سمة شعبية، فضلا عن صورة الكوخ المجسدة بعناية وهو يصفه» قدور وأوانٍ وناموسيات و... وكرسي خشب لمّاع تم الاستيلاء عليه من فرهود بغداد يوم مقتل العائلة الحاكمة «وهنا يتجلى التاريخ في القصة وهو إشارة لعام 1958م وما رافق تلك الايام من مجازر شهدتها بغداد وما رافقها من عمليات سلب ونهب لأملاك ملوك العراق وحواشيهم ابتداء بالقصر الذي استحوذ عليه المقدم وصولا إلى الأسلاب التي صارت نهبا بيد الخارجين عن القيم الاجتماعية.

وفي إطار التناسق الدلالي للمفردات والجمل في هذه المجموعة أجد أن الحيدري نجح الى حد كبير في تنسيق هذه العلاقة بين الدال والمدلول اذا ما عرفنا أن العمل الابداعي يسعى لترسيخ هذه العلاقة كما يجد ذلك تودوروف ويشاطره الرأي دي سوسير «بقوله إن «العلاقة بين الدال والمدلول هي بالضرورة علاقة غير معللة بعلة ما، إذ الدال والمدلول كلاهما من طبيعة مغايرة، ولا يعقل أن تكون سلسلة متوالية من الخط أو من الأصوات تشبه في شيء المعني، وفي ذات الوقت تكون هذه العلاقة ضرورية، على معنى أن المدلول لا يمكن أن يوجد بدون الدال وبالعكس» وانطلاقا من هذه القاعدة فإن العمل القصصي الذي يترك أثره في نفس المتلقي وجود تلك العلاقات المتشابكة بين الطرفين، وهذا ما تمكن من تجسيده الحيدري في معظم المتون السردية التي تضمنتها المجموعة .

يقول القاص:

**«الآن تحت سيلان النوم الخفيف، كان بوسعها أن ترى أشياء ...»**
**ص68**

في هذه الجمل وما يشابهها يذهب نطاق الدلالات الوضعية حيث لا يكون بينها تفاوت، لأن «محاولة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وهذا ما عبّر عنه بطريقة غير مباشرة من خلال انزياح الجملة، أما النقصان بالدلالات الوضعية لم يرد في معظم القصص، وليس من فائض لغوي حيث قدّرت الجمل لتغطي المعاني «توافق التراكيب للمعاني بلا زيادة»، . ومثال ذلك إذا أردت تشبيه الخد بالورد في الحمرة مثلا وقلت: خد يشبه الورد، امتنع أن يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه في الوضوح أو أنقص وهذا معنى التكامل بين اللفظ ودلالاته.

غالبا ما اتسمت قصص هذه المجموعة بالترجمة الذاتية للحدث القصصي من خلال انسجام السرد وهو الكيفيَّة التي تُروى بها القصَّة كذلك هو طريقة عرض الحوادث في القصَّة، أو هو نقل حادثة من صورتها الواقعة في الواقع إلى صورةٍ لغويَّة.

تكلم السارد في «صبيان الماراثون» عن وقائع مزجت بين الحدث الفعلي وترميزاته وبين مخيال القاص الذي أضفى على الحدث ما يسوقه بطريقة ذكية للمتلقي.

ومن النافع التنويه أن المجموعة تضمن ما يقع ضمن «القصة القصيرة جدا» كما في «تأمل، الخلاصة، حرمان، نقطة، كابوس، خبز، التابوت» التي تمثل فيها عنصري الادهاش والمفاجئة .